أدب الرحلات إلى الحرمين الشريفين فى مواجهة التحديات المعاصرة: رؤية أدبية و دينية

د. كترمحمد ابوبكر صديق'.

استاذ القسم العربى جامعة داكا بنغلاديش۔

أدب الرحلات هونوع أدبى يقوم على وصف الأديب لما شاهده فى رحلاته من عمران' وأحداث' وأشخاص و عادات و تقاليد وغيرها فنزلت الرحلة فى الأدب الحديث منزلة رفيعة' وأصبحت فناً من الفنون الشائعة فى معظم البلدان العالمية وقد ساعدعلى از هارها اختلاط الشعوب وسهولة المواصلات وحب الإطلاع ومعرفة مافى العالم من عادات وأخلاق يقتضى التأليف فيها ثقافة واسعة ودقة فى الملاحظة والتقاط الملامح المعبرة' ومشاركة فى عدد كبير من المعارف و الاحتواء الرحلة على معارف وعلوم متعلقة بالتاريخ والجغرافية والفلسفة والاجتماع والأدب' وتفرض الأناقة فى تخيروالمفردات' وصياغة العبارات وتنسيق الفصول۔ وإن الإثارة فى الرحلة متأتية من الوصف الطريق للواقع' والسرد الفنى للمغامرة الإنسانية' و العواطف المحركة للبشرونابعة أيضاً من أنواع الشخصيات التى تبرزها بحيث تبدو للقارئ متوافقة فى كثير من نزعا تها' و متفاوتة فى جوانب أخرى ليحتفظ كل منها بميزاته الفرديّة ۱۔

والرحلات عند الإنسان فط ة أوهكذاتبدو. و من قديم ارتحل الانسان وحده وارتحلت القبائل' جرهم مثلاً وإياد وقضاعة' و تنوع الهدف أواختلفت الضرورة. وأشهر الرحلات رحلة الخضرو ذى القرنين' وأبرزها رحلة سيدنا ابراهيمؑ من أقصى شمال الجزيرة العربية إلى مصر والبلد الحرام أى المكة المكرمة وفى العصر النبوى رحل النبى صلى اللّٰه عليه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى'

حيث قال الله تعالىٰ سُبْحٰنَ الَّذِى اَسْرٰى بِعَبْدِهٖ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ اِلَى الْمَسْجِدِ الْاَقْصٰى الَّذِىْ بٰرَكْنَا حَوْلَهٗ لِنُرِيَهٗ مِنْ اٰيٰتِنَا اِنَّهٗ هُوَالسَّمِيْعُ الْبَصِيْرُ وفى العصر الحاضرجاب الجزيرة العربية كثير من المشارقة والمغاربة·مجموعة الأجانب المستشرقين' على رأسهم بركهارت.(۲)

إن أدب الرحلات مازال مستمراً ولكنه أقل مماكان عليه سابقاً۔ فقد كتب الأولون وتركوا تراثاً غزيراً فى هذا الميدان فما أجمل أن نهتم بهذا الجانب ونكتب عن البلدان التى نزورها ونشاهدها ونطلع على آثارها ومعالمها وثقافتها و حضارتها بأسلوب ممتع يزيل اللثام عن القارئ ويجدد نشاطه لمواصلة القرأة۔ فلقد أفاد أسلافنا فى كتاباتهم عمن أشرنا إلى·أسمائهم و لكن انتفع الكثيرون من رحلات ناصر خسرو (ت۴۸۱ھ/۱۰۸۸م) الذى كان شاعراً من بلخ ومن اقطاب الأدب الفارسى حج إلى مكة وزار مورية وفلسطين ومصر والجزيرة العربيةُ ترك لنا أخبار رحلاته فى كتابه "سفرنامه" كما دوّن الكثيرمن المعلومات فى الكتاب" فتوح البلدان ممن أمد الثقافة العربية بثروةٍ فكريةٍ و تاريخيةٍ كذلك فى رحلات الاستاذ عبدالوهاب عزام الشئ الكثير من المعارف والآداب والعلوم.(۳)

كمالاننسى مجموعة من المستشرقين ممن عنوابالتنقيب والسياحة والتاريخ ودارسة الآثار فى الشرق العربى وقاموا برحلات فى أنحاء مختلفة من البلاد العربية و جمعوا قدراً كبيراً من المعلومات ودرسوها دراسته علمية ونشرواتلك الدراسات وكتبواالرحلات التى قاموا بها وهى تحوى آراء و معلومات عن بلاد العرب خاصة الجزيرة العربية أى المكة المكرمة والمدينة المنوره على جانب كبير من الأهمية ومهمايكن من نقص فيما نكتبه خلال زياراتنا فإن فى ذالك فائدة للآخرين وخاصة فيما يتصل بالمجالات الاقتصادية و الدينية والعلمية وغيرها۔ فإن ذلك يساعد المهتمين بها. فكم ترك الأول للآخر فاذا زار

أحدبلداً من البلدان وتحدث عن جامعا تها ومكتباتها وآثارها الدينية والعلمية وما تحويه من مخطوطات فإن ذلك يعين الباعث والمهتم بذلك.(٤)

إن الكثيرمن العلماء والأدباء والمفكرين يزورون بلداناً كثيرة ويحضرون مؤتمرات شتى فما أجمل أن يسجل هؤلاء افكارهم وآراء هم و مشاهداتهم لتلك البلدان عند زيارتهم لها وخلال زياراتهم لمكتباتها ومصانعها ومجامعها العلمية والفكرية ومقابلاتهم للشخصيات العلمية المرموقة فيها۔ إن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فانه يظل مخصباً و مفيداً وذاعطاء علمى غزير بحيث يبرزفيه الجانب التصويرى والسياق الأدبى والتحقيق التاريخى والاجتماعى وتطعمه بمأثور الشعر والمثل والحكم مماتقتضيه المناسبة.(٥)

إن الكثيرمن الناس قدلاتتاح له فرص الاسفار والتجوال ولذافهو يجدمتعة و فائده فيمايقرأه من تلك بفضل اتصال العالم مع بعضه وتوفرمن مسائل المواصلات فينبغى أن نهتم بأدب الرحلات وتدوينه وتسجيله أذالملاحظ عدم الاهتمام بذلك مع انه عن بلاد العالم الآخربل كتاب مفتوح يقرأالمرء بين ثنايا سطوره دقائق حياة الأمم ومآثرها وتراثها وحسنها وسيئها وخاصة فى هذا العصر الجديد الذى اصبحت المسافات فيه بين الدول متقاربة والانتقال من بلدإلى آخر اصبح ميسوراً بل ها هى القارات تصل وتلتحم ببعضها إنه عصر الاتصالات السريعة بكافة أنواعها وألوانها وذلك بفضل التقدم العلمى الحديث الذى افرزهده الانجازات الباهرة إذ أخذ نا نرى و نسمع و نشاهد بالصوت والصورة مايحدث فى شتى أنحاء العالم، كما أن الاقمار الصناعية التى أخذت مداراتها حول الكرة الارضية لتسجل وتلتقط آلاف الصور رغم طول المسافات لها دور كبير۔ واسلافنا الذين كانوا يستخدمون الجمل والخيل والحمار الزاجل ومع ذلك كانوا يأتون على ذكر كل الأهوال والأوصاف و وصفوا النياق كما ورد فى معلقة طرفة بن العبد.(٦)

كأن . جدوح المالكية غدوة خلايا سفين بالنواصف من دد

بي أن يقول :

وإن شئت لم ترقل وإن شُت ارقلت مخافة ملوى من القد محصد

تبارى عتاقاً ناجيات وأتبعَت وظيفاً وظيفاً فوق مورمعبد

ومع صعوبة تلك المواصلات فلم يترك اسلافنا باباً من ابواب العلم والمدينة الاوطرقوه ولاعلما من العلوم و الصناعات إلابرزوافيه وقدتجلت مدينتهم بأجلى مظاهرها فى الشام ومصر والمغرب والاندلس وكانوا يدونون مايسمعونه من العلوم خلال رحلاتهم ويحفظونه فى صدورهم، كماقال الامام الشافعيؒ .(۷)

علمى معى حيثما يممت ينفعنى

صدرى وعاء له لابطن صندوق

إن كنت فى البيت كان العلم فيه معى

أوكنتُ فى السوق كان العلم فى السوق

لقد كانوا فى رحلاتهم ينشرون العلوم والمعارف والآداب والفضائل۔

فنعيد الى الأدب الخالد مجده الرفيع أوشيئا منه بأن نتصفح أدب الرحلات والمحور الذى يدورعليه فهويعطينا صورة لاولئك الرحالة من الأدباء والمؤرّخين الذين اكتسبوامعارفهم عن طريق المشاهدة والاسفار والمعاينة فأتوابأعمال علمية باهرة فى تاريخ الحضارة والنهضة الإسلامية، حيث قاموا برحلات بعيدة وواسعة عملاً بالتوجيه الالهى (قُلِ انْظُرُوْا مَاذَا فِيْ السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ) و (قُلْ سِيْرُوْافِيْ الْاَرْضِ.فَانْظُرُواكَيْفَ بَدَأَالْخَلْقَ) فخرجوايطلبون العلم بالارض الواسعة ومعرفة آداب وطبائع واخلاق وتواريخ الأمم والديار اذيقول المسعودى (ت ۹۵۶م) وهو رحالة معروف "ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما يماإليه من الأخبار عن اقليمه كمن قسم عمره و قطع الاقطار ووزّع أيامه بين

تقاذف الأسفار واستخراج كل دقيق من معدنه وآثارة لكل نفيس من ممكنه' ولقد كانت رحلاته مصدراً ها مامن مصادر معرفة الجغرافية.(۸)

إن الرحلات كمايقال تحقق التاريخ و تثبت ماكان صحيحاً منه وتنقض المكذوب فيه فالرحالة يميط اللثام والنقاب عن الحقائق الغامضة ويبددغيوم الأوهام وينقل الحقيقة كما هى ولقدقيل "الرحلات والأسفار وتغيير ا لمكان تمنح صاحبها قوة". وأن المكتبة العربية لفى حاجة إلى كتب الرحلات فى مختلف الأدوار التاريخية واذاكان لأسلافنا المصنفات الممتعة فانه يحسن بنا وقد اتسعت دائرة الرحلات أن نعنى بهذا الجانب الذى سيثرى الادب العربى باستنهاض الهمم وحفزالمواهب والقدرات وسيقوى على ذلك كل عالم واديب منحه اللّٰه القوة والصبروالاحتمال۔

وهكذا فأدب الرحلات ارتياد لمناهل الثقافة والأدب والعلم والمعرفة اذتبدو البلاد أمامه كتاباً مفتوحاً يقرأبين ثنايا سطوره دقائق حياة الأمم وثقافتها وتاريخها و مآثرها وتراثها.(۹)

وأماالحرمين الشريفين هما المكة المكرمة والمدينة المنورة۔ المكة المكرة هى البلد المقدسة العظمى عندالاسلام لاحتوائها البيت المعظم الحرام والكعبة الشريفة مناسك الحج و مسقط رأس النبى محمد صلى اللّٰه عليه وسلم وعاصمة الحجاز۔ وهى مركز للملة الاسلامية يقال فى الجاهلية لهابكة قال اللّٰه تعالى: إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُّضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِىْ بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَّهُدًى لِّلْعَالَمِيْنَ .

والمدينة المنورة هى مدينة فى الحجاز وهى أسست على التقوى عمَّرها خير البرية محمد صلى اللّٰه عليه وسلم هى ثانية البلاد المقدسة الاسلامية وفيها ثانى الحرمين وقبرالنبى صلى اللّٰه عليه وسلم . قال النبى صلى اللّٰه عليه وسلم لاتشدّوالرحال إلا الى ثلاثة مساجد المسجد الحرام والمسجد الأقصى ومسجدى

هذا .

الرحال جمع رحلة وهی کورا لبعیر والمراد نفی فضیلة شدها ومربطها ومعناها نهی' ای لاتشدوا الی غیرها' لأن ماسوی الثلثة متساوفی الرتبة غیر متفاوة فی الفضیلة۔ فالحدیث إنما کان نهیاً عن الشدلغیر الثلاثة من المساجد لتماثلها بل لابلد إلا وفیها مسجد فلامعنی للرحلة إلی مسجد آخر وأمازیارة القبور والمشاهد فلاتساوی بل برکة زیارتها تکون علی قدردرجاتهم عنداللّٰه فالمسجدالحرام هوبیت اللّٰه و قبلة المسلمین رفع قواعدها ابراهیم خلیل اللّٰه و اسماعیل ذبیح اللّٰه فقال تعالیٰ وَإِذْيَرْفَعُ اُبرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَاِسْمٰعِيلُ والمسجد الاقصیٰ هوالبیت المقدس وهو قبلة الأمم السابقة عمّرها سلیمان علیه السلام۔ والمسجدالنبوی هوأسس علی التقوی عمّره خیر البریة۔ فکانت رحلة الیها وفادة إلی باریها . (۱۰)

لقد استأثرأدب الرحلات إلی الحرمین الشریفین باهتمام کبیرمن مفکری ومثقفی العالم الاسلامی قدیماً وحدیثاً' وعنی به أعلام بارزون وأدباء ماهرون عبرمراحل التاریخ' ویحرص کثیر من الناس علی الاهتمام بأدب الرحلات إلی الحرمین فمن أشهرالرحلات والرحالین ۔

۱۔ ابن بطوطة (ت ۷۷۹ھ/۱۳۷۷م) فمازالت رحلته مصدراً کبیراً من مصادر علمی التاریخ والجغرافیا فی القرون الوسطی' حیث أنه أول من جاب الأقطار العالمیة وکتب عن حیاتها الاجتماعیه والسیاسیة واحوال الأمم وأسرارها وعاداتها وتقالیدها' وکشف عن الکثیر من مخبا تها۔ ولقد کتب الکثیرون من المستشرقین والباحثین حول ذلك حیث أحلوه المرتبة والمکانة اللائقة به۔ فهورحالة واسع المعارف والمدارك راغب فی اقتحام المخاطر والأهوال فهویعتبرمن اشهرالرحالین۔ وله شهرة فی عالم الرحلات والأسفاروحب التجوال

فقد دامت رحلته ثمانية وعشرمن عاماً جاب فی أنحائها شتی البلدان والأمصار والممالك، حيث انطلق من طنجة افريقيا، ثم مصر، فلسطين وسوريا والحجاز حيث ادیٰ فريضة الحج ثم تابع رحلتهٗ إلى العراق وفارس والهند والصين وبخارى وخوارزم وأفغانستان وسيلان والملايو وسرمطرة وإسبانيا وجبل الطارق، وغير ذلك مما جاء فی كتابه المسمّٰی تحفة النظار فی غرائب الأمصار وعجائب الأسفار" المعروفه برحلة ابن بطوطة التی ترجمت إلى الفرنسية والانكليزية والألمانية .(١١)

٢۔ المؤرخ حسن حسنی عبدالوهاب (ت ١٩٦٨م) فقال فی رحلته القيمة "حج المغاربة قديماً وحديثاً" أما المراحل التي كان يسلكها الراكب فهی مراحل مألوفة معروفة من قديم الزمان، وقد ضبط اسماء ها بعض المغاربة الذين دونوا رحلاتهم، وقدنص اولئك الكتاب على محطات النزول ووصفوها كما ذكرا ايضاً مالاقوامن العقبات فی اجتيازهم الطريق من المحيط الاعلیٰ إلى الحجاز ووضح لنا المؤرخ حسن حسنی بتفصيل أسماء طرق الحج البرية بالمغرب العربی وتحدث عن اصعب الطرق البرية على حجاج المغاربة . (١٢)

٣۔ الرحالة العبدی الحيحی، وهوالذی سحرالناس ببيانه فی رحلته الحجازية "الرحلة المغربية" وشوقهم فيها الى زيارة الاماكن المقدسة لدى المسلمين مكة والمدينة و قبرالرسول ﷺ۔ إنه رحالة عالم مجتهد، مجهول البلاد والوفاة، ولكن اشتهراسمه برحلته الحجازية التی هی حسب بعض النقاد المصنفين تفوق رحلة ابن جبير الشهير بلاغة واسلوباً وبياناً۔

٤۔ ابن جبير، محمد بن أحمد (ت ١٢١٨م)، ولدفی بلنسية فی الاندلس وتوفی فی الاسكندرية۔ وهورحالة عربی، درس الفقه والحديث فی شاطبة شرب الخمرة مدفة فحج تكفيراً۔ زار الاسكندرية والقاهرة ومكه والمدينة والكوفة

والموصل والحلب و الدّمشق والعكا والصقلية۔ ووصف رحلاته الثلاث فی كتاب قيم يعرف "برحلة ابن جبير".(۱٤)

٥۔ الرحالة احمد الهوارى (ت ۱۹۵۳م) كاتب صحفى ورحالة معاصرمبدع مغربى رحل إلى الحجازسنة ۱۳۵۲ھ/ ۱۹۳٤م وبعد رجوعه من الحج وزيارته الحرمين الشريفين ألف رحلته الحجازية القيمة "دليل الحج والسياحة" على نهج "الرحلة الحجازية" للبتنونى و "مرآة الحرمين" لابراهيم رفعت امير لواء الركب المصرى۔ ورحلة تحتوى على ۳۱۰ صفحة۔طبعت بالمطبعة الرسميه بالرباط عام ۱۳۵٤ھ/ ۱۲۳۵م وهى تعتبر اليوم نادرة لاقد ميتها.(۱۵)

٦۔ الأديب الرحالة احمد بن المأمون البلغيثى (ت۱۳٤۸ھ)' وهو فقيه عالم رحالة و أديب شاعر بحاثة' ولد عام ۱۲۸۲م بفاس وتخرج من جامعة القرويين وعيّن فيهااستاذًا و تولى القضاء فى مدن مختلفة بالمغرب نظم قصيدة حجازية سماها" النحلة الموهوبة النحازية فى الرحلة الميمونة الحجازية"۔ يصف فيها مقامه فى مكة وجدة وما وقع له بعد دخوله المدينة المنورة' فانشد : (۱٦)

قصدت بيت اللّٰه للطواف والسعى فى تجرد الاعطاف
سبحانه هو الكريم ظننا به جميل لايخيب قصدنا
وبعد يومين و صلنا للتى هى لنا فى القصد أسنى مُنية
تلك الحبيبة و تلك طيبة تلك و تلك و هى ذات الهيبة
المصطفٰى محمد من ارسله ربُّ الأنام رحمة مسلسلة

۷۔ الرحالة عبداللّٰه كنون (ت ۱٤۰٤/۱۹۸۹م)' وهو رائد الادب المغربى المعاصر۔ نشرت رحلته الحجازية ضمن كتابه"تحركات اسلاميه" وفى مقدمة كتابه تكلم عن انواع آداب الرحلة (۱۷)

۸۔ الرحالة مصطفٰى الصباغ (ت۱۹٦٦م)' هو أديب من أبرز كتاب صحيفة

"العلم" المغربية' كبرى صحف المغرب واقدمها وأشهرها' عصامى فى تكوينه' كتب فى السياسة والاجتماع والقصة والرحلة ' حج وسجل رحلته الحجازية فى ٤٩ صفحة نشرت مع المقالات التى جمعت بعد وفاته فى كتاب "رحلة فى حياة قصيرة".(١٨)

٩۔ الرحالة عبدالغنى سكيرج (١٣٣٥ھ/١٩١٧م)'وهو شاعر طنجة' له رحلة حجازية لازالت مخطوطة فى نحو ١٠ صفحة عنوانها "مشاهد من البقاع المقدسة (٧٢۔١٩٧٣)".(١٩)

١٠ الرحالة الداعية عمر مفتى زاده (ت١٩٧٤م)' كان رحمه الله داعية اللّٰه مخلصاً فى دعوته محباللإسلام مدافعاً عنه بقلمه ولسانه' كثير الرحلة اوالتحوال فى بلدان العالم نشر الدعوة الاسلامية فى كل من افريقيا وأوروبا واسياولدسنة ١٩١٩م بتركيا۔ استقرمع اهله بمكة المكرمة وفيها توفى وكانيتمنى ان يموت فى مكة . كتب يوميات نشاطه فى الحجاز تحت عنوان "فى طريق مكة المكرمة" ورحلة هذه يمكن ان ندرجها ضمن الرحلات فى سبيل نشرالدعوة الاسلامية كرحلة الدكتورتقى الدين الهلالى (ت ١٩٧٤م) "الدعوة إلى اللّٰه فى اقطار مختلفة" و سواها.(٢٠)

١١۔ عبدالسلام المكى بنيحى' هو قاض و شاعر معاصر من اهل شفشاون' نشررحلتهٔ الحجازيةفى طنجة (١٣٩٣ھ)' تحت عنوان "حج وحاجة" و قدقسما إلى اربعة فصول: الأول طريق الذهاب' ذكر فيه المشاهد التى زارها' الثانى خاص بمناسك الحج' الثالث خاص بحياة الرسولﷺ و جهاده' الرابع طريق الذهاب وهوالفصل الذى تحدث فيه عن المدينة المنورة والمسجد النبوى ومكة المكرمة.(٢١)

١٢۔ احمد الشريف السنوسى (ت ١٣٥١ھ)' هو من كبار المجاهدين والقواد

الاسلاميين فى عصرناالحاضر' برز اسمه على الساحة الاسلامية والعربية أثناء الحرب الطرابلسية التى قادها مدة اربعة عشرعامًا' ومن تلاميذه و قواده المجاهد الشهيد عمر المختار۔ انتقل الشيخ احمد السنوسى الى مكة المكرمة معتزلاالسياسة ولقى كل مساعدة من السعودية .(٢٢)

١٣۔ الطيب المهاجرى (ت ١٩٧٢م)' هو من أبرز العلماء بالجزائروله رسالة فى مناسك الحج ورحلته العلمية والحجازية "انفس الذخائر وأطيب المأثرفى اهم ماتفق لى فى الماضى والحاضر" هى أهم كتبه۔

١٤۔ محمدحسين هيكل (ت ١٩٥٦م)' هو مؤرخ مصرى كبير و صحافى و سياسى ورحاله وله "فى منزل الوحى" وهى رحلة القيّمة الى الحجاز حيث اطلق فيها لقلمه العنان' وكتب بصدق وحبّ عدة صفحات عن المدينتين المقدستين' لاسيما المدينة المنورة مثوى الرسولﷺ ومما عبرعنه بإيمان قوى كله اعتزاز بالاسلام و تعلق متين' كله تضرع و خشوع بين كعبة و صفوة انبيائه ورسوله' قوله "وبدأالناس ينصر فون من المسجد وأقمت مكانى' حتى إذا خلت أروقة المسجد أوكادت ذهبت أؤدى للحجرة النبوية ولقبرالرسول زيارة الوداع .....قائلاً: السلام عليك يا رسول الله....."(٢٤)

١٥۔ ابراهيم عبدالقادر المازنى (ت١٩٤٩م)' هواديب وصحافى مصرى مجدد' ناقدمن كبار الكتاب وله رحلة لطيفة "إلى الحجاز" قام بها سنة (١٣٤١ھ/١٩٣٠م) بمناسبة الاحتفال بجلوس الملك عبدالعزيز آل سعود طبعت سنة ١٩٣٠ فى ١٦٦ صفحة مزينة بالصور وهى تعتبرفى حكم النادرجديرة بالنشر من جديد اعتباراً لأسلوبها المشرق الرفيع.(٢٥)

١٦۔ ناصر خسرو كماذكرنا وله رحلة حجازية "السفرنامه" حج للمرة الأولىٰ ٤٣٨ھ خروجاً من مدينة الخليل إلى بيت المقدس و من بيت المقدس خرج

مسیراً علی الاقدام إلی الحجاز وحج للمرة الثانية سنة ٥٤٣٩ه. و وصف فيها مكة المكرمة والمدينة المنورة بعبارات أنيقة .(٢٦)

١٧۔ الرحالة السويسرى بوركهارت (ت١٨١٧م)' وله رحلة حجازيه "رحلات العرب" وصف فيها المدينة المنورة و مكة المكرمة بعبارات بليغة' فيقول: المدينة حسنة البناء فكل مبانيها من الحجر' وتتالف منازلها فى اكثر الامرمن طابقين عاليين' و سقفها مسطح.....أما الآن وقد نقصت مواردهم لايقدرون على مايكلفه البناء من عظيم النفقة..... ولذلك ترى المنازل الخربه والجدران التى توشك ان تنقص فى كل مكان' ومن ثم كان منظر المدينة كاكثرمدن الشرق ممايبعث إلى القلب الحسرة ولايعيدإلى الذهن من بهائما القديم إلاصورة ذابة".(٢٧)

١٨۔ الأميرة خناثة بنت الشيخ بكارا لمعفرى: من أغرب رحلات الحج التى سجلها لنا التاريخ رحلة كنكوملك مالى الذى خرج من بلادہ وتوجه إلى الحج وهو يحمل أطفاناً من الذهب الخالص على خمسمائة بعير من العبيد فى يدكل واحدقضيب من ذهب وأينماحل بدأيجزل عطاياه للناس من الذهب' وعند مابلغ مصرسقطسعرالذهب فيها بسبب كثرة الذهب الذى وزعه على الناس مجاناً و "رحلة خديو مصر الغربية" التى دون اخبارها البتنونى فى الرحلة الحجازية' ورحلة ام المعتصم باللّٰه من بغداد سنة ٦٤١ه التى رافقتها فى حجها قافلة ضخمة تتكون من مائة الف و عشرين الف حمل ورحلة ملك مصرالظاهر بيبرس بجيشه الجرار الذى واجه فيه امريكه سعد ادبه معة وقضى عليه ودخل المدينتين المقدستين منتصرا راكبا على جواده ورحلة زبيدة قرينة هارون الرشيد التى بذت عينا تحمل اسمها وانفقت عليها اموالاً طائلة وحبستها على الحجاج۔ ورحلة خناثة بنت الشيخ بكارا المعفرى قرينة السلطان مولاى اسماعيل العلوى دونها عبدالقادر

الجیلانی المعروف بالاسحاقی بعدرجوعه من عام ۱۱۸۰ھ وهی لازالت محطوطة فی خزانة القرووبین، وقد نشرمنهاد۔ عبدالهادی التازی مؤرخ المغرب الدبلوماسی الجزء الخاص بلیبیا، التی خصصت لموکب الأمیرخنائة استقبالاً شعبیاًرائعاً۔

فیتعذر علی أی باحث أومورخ عدد الشخصیات البارزة التی حلت بمکة المکرمة وبالمدینة المنورة عبر مختلف العصور، وکتبت رحلاتهم الحجازیة۔ فهذا المؤرخ المقریزی یکتب خمسة مجلدات خاصة بالملوك الذین حجوا، ونجد أیضاً المؤرخ تقی الدین الفاسی یکتب ثمانیة مجلدات خاصة بتراجم اعلام مکة والمدینة فی هذا الموضوع۔

ادب الرحلات فی مواجهة التحدیات المعاصرة

إن أدب الرحلات إلی الحرمین الشریفین قدیماً وحدیثاً حینما یتصدی له العلماء والشعراء والادباء والمفکرون فی وحدة الملة الاسلامیة والأمة الإسلامیة العالمیة فإنه یظل مخصباً ومفیداً ومتحدیاً و ذاعطاء علمی غزیر بحیث یبرز فیه الجانب التصویری الحقیقی والسیاق الأدبی الرفیعی والتحقیق التاریخی والاجتماعی الاسلامی وتطعیمه بمأثور الشعر الموزون بقافیة والمثل الحقیقی والحکم مماتقتضیه المناسبة فی العصر الحاضر ومن الرحالة خاصه فی أواخرالعهد العثمانی ابراهیم رفعت الذی صور فی کتابة "مرآة الحرمین" فی وقائع رحلاته الاربع إلی الدیار المقدسة، اذکان أمیراً للحج المصری خلال السنوات ۱۳۱۸ھ و ۱۳۲۰ھ و ۱۳۲۱ھ و ۱۳۲۵ھ الموافق ۱۹۰۱م، ۱۹۰۲م، ۱۹۰۴م، ۱۹۰۸م، وکذلك محمدلبیب الخدیوی عباس سنه ۱۳۲۷ھ/ ۱۹۰۹م ۱۹۱م، وقد أمره الخدیوی "بوضع شئ عن هذالرحلات المبارك" وکلاالمؤلفین لیس لدیهما اهتمام کبیر باللغة العربیة ولابالادب العربی، وإن کانا قد أشارا أشارات لطیفة إلی

لہجات بعض القبائل وأشعارها۔ ولعل أشهر رحلتين فی أواخرالعهد الهاشمی همارحلة خير الدين الزركلی فی "مارأيت وما سمعت" سنة ۱۹۲۰م، ورحلة أمين الريحانی "ملوك العرب أورحلة فی البلاد العربية" سنة ۱۹۲۲۔ وكلاهما أديب و شاعر كما هو معروف۔ ولكن الزركلی كان بالمخطوطات و تحقيق الواضع والآثار۔ وقدأتاحت له رحلته إلى مدينة الطائف أن يتحدث من الكثير من معالمها و آثارها، كما تحدث عن البدو وآدابهم۔ وأماالريحانی فقد قدم لمهمة سياسية، لم تقتصر على الحجازبل شملت كذلك تهامة وعسيراً ونجداواليمن والكويت والنواحی اتسمح المحمية وعلى الرغم من النزعة الأدبية عند كل من الزركلی والريحانی فإنهما لم يتحدثاعن أدباء تلك الفترة۔ اماالرحلات العربية فی أوائل العهد السعودی فقد كثرت و تنوعت على الاماكن المقدسة مكة المكرمة والمدينة المنورة ولم يتعدهاإلى المناطق الأخرٰى۔ ومن أهم هذه الرحلات: رحلة إبراهيم عبدالقادرالمازنی (ت ۱۹٤۹م) "رحلة الحجاز" سنة ۱۹۳۰م ورحلة الأميرشكيب ارسلان (ت ۱۹٤٦م) "الارتسامات اللطاف" (سنة ۱۹۳۱)، ورحلة الطنطاوی (ت ۱۸٦۱م) "من نفحات الحرم" (سنة ۱۹۳۵) ورحلة محمدحسين هيكل "فی منزل الوحی" (سنه ۱۹۳۷) ورحلات عبدالوهاب عزام فيما بين سنتی ۱۹۳۷م و ۱۹٤۸م، ورحلة بنت الشاطئ "ارض المعجزات" (سنة ۱۹۵۱)۔

ومع أن هذه الرحلات جميعها قدما دفت ظهور الصحف والمجلات فی البلاد العربية، أی بدايةُ تكوّن الأدب الحديث ونشره فی جرائد "ام القرى" و "صوت الحجاز" و "المدينة المنورة" و "البلاد" ومجلة "المنهل" فإن أحداً من أولئك الرحلة الأدباء لم يتوقف عندتلك الحركة النشيطه الناشئة الأدبية، ولم يشرأ ويسجل شيئاً مما أباحه الرواد الشباب فی تلك الفترة الأدبية۔ فنلاحظ مماسبق من الرحلات وأدبائها والرحالة الى الحرمين الشريفين أن الرحلات بطبيعتها عين

سریعة، تخطف الأشیاء خطفاً وتسجلها عفواً، تبحث مدالمدهش والغرب، ولاتصل إلی أحکا مها نتیجة البحث والدارسة، بل غالباً ماتنطلق من تصورات ذاتیة، وأحکام مسبقة وظروف خاصة و معظم السواح والرحالة الذین ذکرناهم لم یقدموا إلی الحجاز بدافع الحب أو البحث عن الحقیقة، وهم من هذه الناحیة یصعب مقارنتهم بأسلافهم من الرحالة العرب القدماء، من أمثال ابن جبیروابن بطوطة، بل ولابالرحالة الأجانب الذین جابوا الجزیرة العربیة والحرمین الشریفین طولاً وعرضا منذقرون مضت، ولقوا فی سبیل الوصول إلی الحقائق الکثیرمن الجهدوالعنت۔

وإذاکان أدباء الشرق قداشتهروا فی میدان القصة، والروایة، والمسرحیة، والمقالة العربیة والادب الموسیقی فان المغاربة تفوقوا علیهم فی میدان الرحلات والتاریخ و الجغرافیة والفلك، والمکتبة العربیة والاسلامیة تزخربمئات المخطوطات فی هذه الفنون۔ وإن قمتُ باحصاء عدد الرحلات الحجازیة التی ألفت عبرالعصورفرأیت الرحلات الحجازیة المغربیة تأتی فی الدرجة الاولی بدون أن ینافسهاأیّ دولة من دول العالم الاسلامی والعربی ۔ ویظن بعض الناقدین بأن السفربالطائرة أوالباخرة إلی الحج ولزیارة الحرمین الشریفین قضی علی تلك الرحلات ولم یعد أحدیقوم بتدوین رحلته الی الحج ' والحقیقة عکس ذلك، فالمغاربة لازالواعلی عادتهم مهتمین أشدالاهتمام بتدوین رحلاتهم الحجازیة إلی الحرمین فی العصر الحاضر فظهرمن الآیات الکریمة والأحادیث النبویة و آثار الرحالین الی الحرمین الشریفین من الأدباء والشعراء والخطباء والعاشقین لله تعالیٰ وللرسول ﷺ بأن اللّٰه سبحانه تعالیٰ فرض علی الأمة الاسلامیة حج البیت من استطاع الیه سبیلاً، لیجتمع المسلمون من جمیع الأقطار العالمیة فیتجهوا إلی اللّٰه تعالیٰ ویتبهلوا إلیه أن یؤیدهم بنصره ویعینهم علی اتباع دینه القویم و دین النبی

الکریم ﷺ، فیجتمعون فی الکعبة المشرفة من حیث لیس فیهم فرق النسب والحسب والبلد والجنس و الشعب المذهب فیحصل فیه تقویة الرابطة الاسلامیة العالمیة واتحاد القلوب المشتة والفائدة الابدیة العظیمة فنری الیوم أن أفئدة المسلمین تهوی إلی مکة المکرمه والمدینة النبویة نعنی الحرمین الشریفین من کل فج عمیق لیشهدوامنافع بهما ویذکروا اسم اللّٰه فی أیام معلومات دواهنالك الشعائر الالهٰیة الدینیة فی أطهرالبقاع ویکفرواعن أثامهم وأوزارهم التی اثقلت کواهلهم وکم من أناس من الرحالین إلی الحرمین تعرضوا للضیاع وألقوا بأنفسهم إلی التهلکة' خاصة من استهوتهم الرحلات فی المحیطات والصحاری والجبال۔

المراجع والمصادر

۱۔ الدکتور امیل یعقوب وغیرہ، قاموس المصطلحات اللغومة والأدبية (بیروت: دارالعلم للملایین، ۱۹۸۷م) ص ۲۵؛ جبوّر عبدالنور المعظم الأدبی (بیروت: دارالعلم للملایین/ ۱۹۷۹م)، ص ۱۲۱۔۱۲۲۔

۲۔ علوی طہٰ الصافی، الفیصل، العدد ۱۳۰، ص/ ٤٦ (دیسمبر ۱۹۸۷) /التحقیق الکتاب "سفینة الصحراء" لعبدالعزیز المسند۔

۳۔ عبداللّٰہ بن حمد العقیل "أدب الرحلات: فن متمیز" المنهل مجلة العرب الأدبية العدد/٤٩٧، ج ٥٤ (جدة:١٤١٢ھ/١٩٩٢م)، ص ٥١۔

:۔ المصدرنفسه۔

۵۔ المصدرنفسه۔

٦۔ المصدرنفسه۔

۷۔ المصدرنفسه۔

۸۔ المصدرنفسه، ص ۵۲۔

۹۔ المصدرنفسه۔

۱۰۔ مشکوة المصابیح، باب المساجد ومواضع الصلوٰة، ص ٦٨۔

۱۱۔ عبداللّٰہ بن حمدالعقیل "ادب الرحلات" فی الفیصل، العدد ۲۱۷ (رجب ١٤١٥ھ) ص ۱۱۵؛ الاستاذ کرم البستانی وغیرہ، المنجدفی اللغة والأعلام (بیروت: دارالشرق ۱۹۸٦م)، ص ۹۔

۱۲۔ المجلة المنهل، العدد ٤٩٩، ج ٥٤ (١٤١٣/١٩٩٢) ص ١٨٦۔

۱۳۔ المصدرنفسه، ص ۱۸۸۔۱۸۹۔

۱٤۔ المنجدفی اللغة والاعلام، ص ۹۔

۱۵۔ مجلة المنهل، عدد المدینة المنورة، ص ۱۱۱۔۱۱۲۔

۱۶۔ المصدر نفسه ،ص ۱۹۷۔

۱۷۔ المصدر نفسه ،ص ۱۹۸۔

۱۸۔ المصدر نفسه ،ص ۲۰۱۔

۱۹۔ المصدر نفسه ،ص ۲۰۲۔

۲۰۔ المصدر نفسه ،ص ۲۰۵۔

۲۱۔ المصدر نفسه ،ص ۲۰۵۔۲۰۶۔

۲۲۔ المصدر نفسه ،ص ۲۱۲۔

۲۳۔ المصدر نفسه ،ص ۲۱۲۔۲۱۳۔

۲۴۔ المصدر نفسه ،ص ۲۱۴۔۲۱۵۔

۲۵۔ المصدر نفسه ،ص ۲۱۶۔

۲۶۔ المصدر نفسه ،ص ۲۱۸۔

۲۷۔ المصدر نفسه ،ص ۲۱۹۔

۲۸۔ المصدر نفسه ،ص ۲۱۱۔۲۱۲۔